

مقال فلسفي منهجي: إنية الذات والبعد الجسدي

تفكيك ثنائية النفس والجسد ورهانات التجسد الوجودية | taalimtn.com

أولاً: المقدمة المنهجية (Introduction)

يمثل التفكير في الكائن الإنساني إحدى أعمق الإحراجات الفلسفية التي رافقت تاريخ الفكر البشري منذ بداياته الميتافيزيقية الأولى وصولاً إلى الفلسفات المعاصرة. فالإنسان ليس كائناً طبيعياً كسائر الأشياء والموجودات في الطبيعة، بل هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يستحضر وجوده بالوعي، وأن يتساءل عن حقيقة ماهيته قائلاً: 'من أنا؟'. غير أن هذا التساؤل البديهي سرعان ما يصطدم بتعقد البنية الإنسانية، حيث يجد الفرد نفسه مشدوداً بين بعدين ظاهريين متميزين: بعد نفسي/وعبي يرتبط بالفكر والتأمل والشفافية، وبعد مادي/جسدي يربطه بعالم الأشياء والطبيعة المادية وخضوعها لقوانين الحتمية والزمن.

وينشأ الإحراج الفلسفي لدرس 'إنية الذات والبعد الجسدي' من تلك المفارقة الحادة بين تقليد فلسفي ميتافيزيقي اختزل الإنسان في مجرد وعي مجرد أو روح مفارقة وجعل الجسد سجنًا أو عائقاً معرفياً وأخلاقياً، وبين تجربة معيشة يومية تؤكد باستمرار أن الإنسان لا يمتلك جسداً كملكية خارجية، بل يحيى كـ 'جسد متجسد' يمارس عبره إدراك العالم والتواصل مع الآخرين.

من هذا المنطلق المنهجي، تتحدد الإشكالية المحورية للمقال في الأسئلة الفلسفية التالية: هل تتأسس إنية الذات عبر التعالي عن الجسد واختزال الهوية في مجرد الفكر والوعي الخالص، أم أن الجسد يمثل البعد الأصيل والمكون التأسيسي لحضور الذات في العالم ووحدتها؟ وبأي معنى يعتبر القول بالجسد الخاص أو المعيش تجاوزاً لإرباكات الثنائية الميتافيزيقية وتأسيساً لإنية إنسانية متكاملة ومتجذرة في الواقع؟

ثانياً: الجوهر (Développement)

1. اللحظة الأولى: الذات كوعي مجرد واستبعاد البعد الجسدي (النزعة الاختزالية المثالية)

تتأسس الأطروحة التقليدية حول الماهية الإنسانية على اعتبار الفكر والوعي هما المقوم الأصيل والوحيد لإثبات الإنية، في حين يُنظر إلى الجسد كعنصر ثانوي أو عائق يجب التخلص منه للوصول إلى الحقيقة اليقينية. وتجد هذه النظرة جذورها العميقة في الفلسفة الأفلاطونية الميتافيزيقية، حيث أقام أفلاطون في محاوره 'فيدون' ثنائية حادة بين العالم الحسي وعالم المعقولات.

فالروح لدى أفلاطون جوهر خالداً ينتمي إلى عالم الكليات والأنوار، بينما الجسد ليس إلا 'مقبرة للنفس' (Sôma Sêma) وعائناً يحجب العقل عن معاينة الحقيقة العلوية بسبب أهوائه ورغباته وحاجاته المادية السفلية. وبناءً عليه، أصبحت الفلسفة بالنسبة لأفلاطون تدريباً رياضياً على الموت الإرادي للجسد لتحرير الروح وسطوع إنكشافها.

وقد بلغت هذه النزعة الاختزالية أوج صياغتها العقلانية الحديثة مع الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (René Descartes) من خلال تجربته الشكية الشهيرة في كتابه 'تأملات ميتافيزيقية'. ينطلق ديكارت من التشكيك في المعطيات الحسية وفي وجود الجسد ذاته، متسائلاً عما إذا كان هناك شيئاً لا يستطيع الشك فيه. فيصل إلى حقيقته الأولى واليقينية: الفعل الذاتي للشك هو فعل تفكير، والشك يثبت وجود الشاك ضرورة. ومن هنا صاغ ديكارت الكوجيتو الشهير: 'أنا أفكر، إذن أنا موجود' (Je pense, donc je suis).

"ولكن أي شيء أنا إذن؟ أنا شيء مفكر. وما الشيء المفكر؟ إنه شيء يشك، ويفهم، ويثبت، وينفي، ويريد، ولا يريد، ويتخيل أيضاً ويحس."

— رينيه ديكارت (التأمل الثاني من التأملات الميتافيزيقية)

يُستخلص من التحليل الديكارتي أن الذات تجد إنيتها كاملة ومستقلة في مجرد ممارسة التفكير، دون الحاجة إلى افتراض وجود الجسد أو العالم الخارجي. فالنفس لدى ديكارت هي 'جوهر مفكر' (Res Cogitans) قائم بذاته، غير ممتد ولا يخضع للمكان أو الزمن، بينما الجسد هو مجرد 'جوهر ممتد' (Res Extensa) يخضع لآلية الميكانيكا الفيزيائية وقوانين الامتداد والشغور. إن هذا الفصل الأنطولوجي الصارم ينتهي إلى تحويل الجسد البشري إلى آلة معقدة لا تختلف في جوهرها الفيزيائي عن آلة الساعة، مما يستبعد المادة والجسد استبعاداً كلياً من تحديد ماهية الجوهرية للذات الإنسانية.

2. اللحظة الثانية: حدود النزعة الاختزالية ونقد الثنائية الميتافيزيقية

على الرغم من المكاسب الإستمولوجية التي حققها الكوجيتو الديكارتي في تحرير العقل البشري وتأسيس الذاتية الحديثة، إلا أن اختزال الإنسان في وعي مجرد واستبعاد الجسد أدى إلى مآزق فلسفية وإحراجات وجودية حادة. إن أولى هذه الإرباكات تمثلت في عجز الديكارتية نفسها عن حل مسألة 'الاتحاد بين النفس والجسد'. فإذا كانت النفس جوهرًا مفكرًا لا ممتدًا والجسد جوهرًا ممتدًا غير مفكر، فكيف يمكن لجوهريين متناقضين بالكامل أن يتفاعلا داخل الكائن البشري الواحد؟

علاوة على ذلك، فإن الشفافية الوعائية التي افترضها التقليد العقلاني تصطدم بصخرة التجربة المعيشة. فالإنسان في حياته اليومية لا يخوض الوجود كعقل خالص ينظر إلى جسده من الخارج كمن ينظر إلى آلة أو سيارة يركبها، بل إن تجارب الألم، اللذة،

المرض، الانفصال، والشيخوخة تفرض حضور الجسد في صميم الوعي ذاته. عندما يتألم الإنسان، لا يقول 'إن جسدي يتألم وأنا أراقب ألمه'، بل يقول 'أنا أتألم'. إن الألم يربك الوعي ويشله، مما يبطل دعوى الشفافية والتعالي.

3. اللحظة الثالثة: إعادة الاعتبار للجسد وتأسيس الإنية المتجسدة

لتجاوز عثرات الثنائية الميتافيزيقية، عملت الفلسفات المعاصرة — وخاصة الفينومينولوجيا — على إعادة تأسيس مفهوم الذات انطلاقاً من إثبات التجسد كشرط وجودي لا محيد عنه. ويرتكز هذا التجاوز بشكل أساسي على أطروحة الفيلسوف الفرنسي موريس ميرلوبونتي (Maurice Merleau-Ponty) في كتابه المرجعي 'فينومينولوجيا الإدراك'.

"إن الجسد ليس موضعاً في المكان، بل هو الذي يمنحني المكان ويؤثث حضوره فيه... أنا لست أمام جسدي، بل أنا جسدي."

— موريس ميرلوبونتي (فينومينولوجيا الإدراك)

يميز ميرلوبونتي تمييزاً دقيقاً ومفصلياً بين مفهومين للجسد: الجسد الموضوع (Le corps objet) وهو التصور الفيزيائي والتشريحي الخارجي، والجسد الخاص أو المعيش (Le corps propre/vécu) وهو الجسد كما أحياه وأختبره من الداخل كشرط انخراطي للانفتاح على العالم وإنتاج المعنى. وبذلك تصبح الإنية لدى ميرلوبونتي 'إنية متجسدة' (Identité incarnée)؛ فالجسد ليس عائقاً أمام الوعي، بل هو نسيجه الأصيل والمرساة التي تربط الإنسان بالوجود والزمن. ويلتقي هذا الطرح مع فلسفة باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza) الذي أقام أطروحة وحدوية الجوهر الشامل؛ فالنفس والجسد ليسا سوى بعدين أو حالين لجوهر واحد، والنفس هي فكرة الجسد. فكلما ازدادت قدرة الجسد على الفعل والتأثير والتأثير في العالم الخارجي، اتسعت قدرة الذات على التفكير والتأمل العقلاني.

ثالثاً: الخاتمة التركيبية (Conclusion)

تأسساً على ما تقدم، نستنتج أن تحديد إنية الذات قد شهد تحولاً فلسفياً جذرياً؛ فقد انتقل الفكر الإنساني من نفي الجسد واختزال الهوية في الوعي المجرد مع التقليد الميتافيزيقي الكلاسيكي (أفلاطون وديكارت)، إلى إدراك عميق ومتبصر بكون الجسد المعيش هو المكون الأصيل والأنطولوجي لحقيقة الإنسان (مع ميرلوبونتي، سبينوزا، ونيتشه). فالإنية ليست جوهرًا روحياً مغلقاً ولا مادة جثة صماء، بل هي وحدة ديناميكية متجسدة نعيشها كحضور مستمر وفعل وتواصل مع الذات والآخرين.

حقوق النشر والتوزيع محفوظة لموقع التعليم التونسي taalimtn.com — متوافق مع البرنامج الرسمي لوزارة التربية

التونسية